الهجرة غير الشرعية... واعتماد التكنولوجيا والرقمنة

فاطمة أمراح، أستاذة باحثة
بالمركز الجهوي لمهن التربية والتكوين جهة الرباط سلا القنيطرة

تشهد الهجرة في السنوات الأخيرة تزايد اعتماد التكنولوجيا والرقمنة سواء من حيث إدارتها من طرف السلطات لضبط ومراقبة الحدود، أو من حيث اعتمادها من طرف المهاجرين غير الشرعيين أو شبكات التهريب، حيث أنه وفي السنوات الأخيرة أخذت الهجرة غير الشرعية، التي يفترض فيها السرية تعرف شكلا مختلفا، يشار له ب "الهجرة غير الشرعية المعلنة".

فعادة ما تكون الهجرة غير شرعية مرادفة للهجرة السرية، لأنها لا تستوفي الشروط القانونية لمغادرة حدود دولة الأصل ودخول أخرى، وتعتمد في ذلك على عنصر السرية التي تعني خروج فردي أو جماعي لمواطنين من دولتهم بشكل غير مشروع سواء من القنوات أو المنافذ حدود دولة الرسمية المخصصة للعبور باستعمال وثائق مزورة، أو باستعمال طرق ومعابر غير رسمية ويلازم ذلك عنصر التخفي والتستر باعتماد إما شبكات التهريب، و/أو باعتماد المهاجر غير الشرعي وسائله الخاصة للتنقل (دباب البحر Jet Ski، العجلات المطاطية مثلا).

ورغم ما يمثله عنصر التخفي والسرية كأحد ملامح الهجرة غير الشرعية، نراه اليوم يشهد الإشهار والإعلان من خلال توثيق المهاجر غير الشرعي لمسار الرحلة والتنقل وعرضها عبر قنوات التواصل الاجتماعي. وبالتالي السؤال الذي يطرح نفسه، لماذا تم إسقاط السرية عن الهجرة غير الشرعية؟

لقد كانت "أزمة الهجرة" 2016/2015 بمثابة نقطة انطلاق لمجموعة واسعة من الابتكارات في مجال المعلومات والتكنولوجيا المتعلقة بالهجرة، بما في ذلك إدخال تقنيات الذكاء الاصطناعي والأتمتة. كما أن الرغبة المتكررة التي تبديها الجهات الفاعلة الحكومية في الاستجابة لأحداث الهجرة تُنمّي أيضاً نوعاً من "الحلولية" التكنولوجية، حيث يقوم المبتكرون التكنولوجيون بإنشاء أنظمة جديدة تُحدد مشاكل الهجرة التي يتعين حلها. ومنها أدوات متغيرات تحليلية مستمدة من مجالات السياسات والنظرية السائدة في دراسات الهجرة، إلى جانب مجموعة واسعة من مصادر البيانات: كالنزاعات، والأمن الغذائي، ومراقبة الحدود، ومؤشرات جوجل، ومستويات التنمية، والاستقرار السياسي[1].

[1] https://journals.sagepub.com/doi/10.1177/1354856520982974
Geographies of migration III: The digital migrant Francis L Collins School of Social Sciences, The University of Auckland, Auckland, New Zealand, 2023.

كما اكتسبت التقنيات الرقمية لجمع البيانات ومعالجتها وتحليلها، ودمجها في أنظمة قابلة للتشغيل البيئي، دورا متزايد الأهمية في إدارة السكان وحركة التنقل في السنوات الأخيرة، خصوصا في مرحلة كوفيد 19، والتي أظهرت إدارة رقمية للمجموعات المهاجرة خصوصا منها غير الشرعية[2]. ويعود جزء كبير من التحول نحو تقنيات الحدود العسكرية والرقمية على الحدود الأمريكية المكسيكية، والتي يجري توسيع نطاقها وتكييفها دوليًا.

يبدو على أن ما يعرفه مجال التدبير ومراقبة الحدود من تطور في اعتماد التكنولوجيا والرقمنة لمحاربة الهجرة غير الشرعية، لم يمنع المهاجرين غير الشرعيين في ابتكار واعتماد أدوات التكنلوجيا هم أيضا في مغامرتهم لعبور الحدود، بل إن الهجرة "السرية المعلنة" تعرف تخطيطا مسبقا لها عبر منصات التواصل الاجتماعي، كما حدث في محاولة الهجرة الجماعية "السرية المعلنة" إلى سبتة بتاريخ 15 شتنبر 2024، حيث تم توزيع مواعيد التجمع ونقاط الضعف في السياج وغيرها من المعلومات، عبر استخدام منصات مثل فيسبوك وواتساب وتلغرام لتنسيق محاولات الاختراق الحدودي، وتبادل الراغبين في الهجرة معلومات عن المسارات والمخاطر.

وهذا يحيلنا لأمرين اثنين، أولهما أن الجهة الداعية لهذه الهجرة غير الشرعية "السرية المعلنة " تعرف مسبقا أن الخبر قد وصل للجهات والسلطات المختصة في محاربة الهجرة غير الشرعية، وبالتالي سيكون اجتياز الحدود صعبا، بل قد يعرضهم لاشتباكات معها، وهو ما قد يؤدي إلى تطوير طرق أخرى بديلة أو مبتكرة لاستعمال منصات التواصل الرقمية.

الأمر الثاني، يتعلق بالفئة التي تتجاوب مع الدعوة للهجرة "السرية المعلنة"، والتي ما إن تنجح في خوض غمار تجربة الهجرة غير الشرعية تقوم بتوثيق الحدث بشكل مباشر، أو عبر نشر فيديوهات تُظهر نجاحات سابقة مع إخفاء مخاطر الغرق أو الاتجار بالبشر، مما يعزز الرغبة في الهجرة لدى الشباب المغربي[3]

ولا مراء أن لمنصات وسائل التواصل الافتراضية لها دور جد مهم في توجيه الرأي العام، وخطورته تتمثل في سرعة انتشاره وسهولة استعماله كأداة للتنسيق، وهي بالطبع منصات مفتوحة وهو ما يعني أن وصول المعلومة تتجاوز الفئة المستهدفة، بل يتوصل بها المسؤولون والسلطات.

وهو ما أشار إليه بحث استكشافي طويل الأمد، حلل مقاطع فيديو أنتجها شبان من جنوب الصحراء الكبرى أثناء إقامتهم في المستوطنات القريبة من سبتة. تم من خلاله التركيز على عمليات التعبير عن الذات وعبور الحدود، ودور الوسائط الرقمية في تجسيدها لتجربة مادية انتقالية في مواجهة أنظمة مراقبة الحدود من الجهتين المغربية والاسبانية.

وقد طور البحث الاستكشافي مقالة بعنوان مفهوم "صناعة المكان الرقمي" باعتباره مجموعة من الخطابات والممارسات المكانية التي تخدم مصالح متضاربة وتُولد مواجهة عنيفة

---

[2] https://journals.sagepub.com/doi/pdf/10.1177/03091325231157709
Geographies of migration III: The digital migrant Francis L Collins School of Social Sciences, The University of Auckland, Auckland, New Zealand, 2023.

[3] فاطمة أمراح، الهجرة غير الشرعية المعلنة... وسؤال الأمن المعيشي، مجلة المسار الصحفي، بتاريخ 23 شتنبر 2024.

للغاية من خلال استخدام الفضاء الحدودي والسيطرة عليه. ولذلك، يمكن فهم استراتيجيات المهاجرين في صناعة المكان الرقمي على أنها خطابات مضادة متنقلة ضد مراقبة الحدود. بهذا المعنى، تُعدّ الأنشطة المادية والرقمية للمهاجرين في المستوطنات أمثلةً لما نسميه "التشكيل المكاني التكتيكي"، إذ تُصبح هذه الأنشطة سُبلاً للبقاء على قيد الحياة وربط ذواتهم ومستقبلهم بالنقاشات الدائرة حول الوصول إلى المكان وتداعياته[4].

عموما ما يشهده انتقال الهجرة غير الشرعية من تحول إلى العلن بدل التحفي والتستر يطرح عدة تساؤلات، منها: كيف يمكن قراءة اعتماد وسائل التواصل الرقمية والتسجيلات وتوثيق مغامرة العبور غير القانوني للمهاجر؟ وكيف يمكن لها أن تسهم في خلق مسارات جديدة للتنقل لا نظامي؟ علما أن الهاتف المحمول اليوم يعتبر كعملة بوجهين، الأول هو اعتباره كأداة محفوفة بالمخاطر بسبب اعتبارها كأداة تتبع الإشارة من طرف الشرطة والتعرف على أصحابها من مهاجرين غير شرعيين، ومن جهة ثانية تشكل أداة توثيق وكسب الدعم في رحلات المهاجرين غير الشرعيين واللاجئين

[4] https://www.researchgate.net/publication/348449555_Digital_placemaking_as_survival_tactics_Sub-Saharan_migrants'_videos_at_the_Moroccan-Spanish_border
Digital placemaking as survival tactics: Sub Saharan migrants' videos at the Moroccan Spanish border, Miguel Fernandez Labayen & Irene Gutierrez, Convergence: The International Journal of Research into New Media Technologies 2021, PP 1–15